الفصل السابع

المرأة والطفل

الطفل هو محور الأسرة الذى يدور حوله سعى الأب والأم، ولكن الأم ترتبط بالطفل برباط غريزى مكتسح، يدفعها إلى العمل لرعايته بجهد لا يعرف الكلل، وتحميه بحرص قد يتطور عند اللزوم إلى التوحش، والتضحية بالنفس.

الأم تقف إلى جانب الطفل الضعيف

والأم دائما تقف فى جانب الطفل الضعيف، وهذا الضعف قد يكون فى السن - التكوين - الصحة - العوز المالى - والجهل - بل إن الأم قد تقف إلى جانب ابنها العنيف الذى يبدو للآخرين قويا وجبارا، لأنها تعلم أن قوته مع نزقه سيضعانه حتما فى موقف ضعيف.

تأثير الأمومة على شخصية الأنثى

وللأم مآرب أخرى فى الطفل، فهو الأداة التى تمارس فيها شخصيتها التى تتمشى مع تكوينها الأنثوى، فالأنثى تحب الدمية تتحكم فى ملبسها وتجميلها، فإذا أنجبت فإنها تضيف استخدام

صوتها فى الترغيب والتحذير والمناجاة والمناغاة، وكنت ألاحظ عادة أن صوت العروس دائما أخفت من الأم بعد الإنجاب، وذلك لكثرة التعامل مع الأطفال الذى كثيرا ما يستلزم الصياح، والأم تستمتع بهذا الصياح، ويبدو أنه تنفيس عن أمور كثيرة.

والطفل تجسيد للعلاقة بين الزوجة والزوج، وهو ما تراه الزوجة رباطا قد يتفوق على رباط الزوجية نفسه، وحول الطفل يلتقى الزوجان فى الكفاح والآمال مهما اختلفا فى أمور الدنيا الأخرى.

الذى تعود الأخذ باستمرار لا يحسن العطاء

والطفل بالإضافة إلى ذلك ذخيرة للمستقبل والشيخوخة سواء كان ذكرا أم أنثى، والمشكلة أن كثيرا لا يكون الطفل عندما يكبر على مستوى الآمال التى تعقد عليه، ويحدث هذا غالبا مع الأمهات اللاتى يفنين حياتهن من أجل هذا الطفل، ذلك أن الذى تعود الأخذ باستمرار لا يحسن العطاء، وهذا هو أحد الأخطاء التربوية التى تقع فيها بعض الأمهات، فالأم التى تشرك معها أطفالها فى المشاكل والحياة العامة هى التى تتوقع أن ترى إلى جانبها سندا قويا عند الحاجة، أما التى تخفى حقائق الحياة والمشاكل والكفاح عن طفلها حتى تكون حياته ناعمة تماما بدون متاعب وبدون إدراك لمعنى الحرمان الذى يجعل الذهن متوقدا، فإنه لا يتصور عندما يكبر

أن يعطى أو يضحى فى الظروف الأسرية التى تستوجب العطاء والتضحية، ويستثير هذا التناقض أشد أنواع السخط من المجتمع، لأنه يأتى أكثر ما يأتى ممن استمتعوا فى حياتهم بأقصى درجات التضحية، مثل عدم زواج الأم الصغيرة ثانية لتتفرغ لتربية ابنها، أو تحملها شظف العيش والعمل الحقير لتوفير المستقبل المضىء له.

وبناء على ذلك فإنه يفضل أن تعرض الحقائق الاجتماعية والاقتصادية للأسرة على الطفل مبكرا طبقا لتطور تفكيره، فيتاح له مرحلة من التفسير للذات والتكيف مع مجتمعه، وحيث إنه ملزم بالاستمرار فى هذا المجتمع فإنه يعتاد التعاون معه بكل طاقته.

وأكثر الأطفال تعرضا للتدليل هو الطفل الوحيد والأخير وذو الجنس المطلوب، ولكن الطفل الأول والوحيد هما الأكثر تعرضا للمشاكل النفسية، وينصح عادة بالا يزيد فارق السن بين طفلين عن حوالى ثلاث سنوات حتى يمكن أن يقوم بينهما صداقة وتفاهم.

الطفل العنيد

والمؤسف أن عدم إدراك الأمهات الصغيرات لكيفية التربية السليمة تؤدى إلى وجود طفل عنيد سيئ الخلق، ذلك أن الطفل لا يمتنع عن إتيان عمل ضار بنفسه أو بالآخرين إلا إذا أحس بإصرار الوالدين على ما يصدر منهما من أوامر، ولكنه إذا اكتشف أنهما سرعان ما يتخليان عما قرراه فإنه يتعلم أن يكون أطول نفسا وأكثر عنادا، ومثل هذا

الطفل يصبح مصدر ضيق وإزعاج للآخرين، وقد يتسبب فى قطع علاقات أهله الاجتماعية لشدة ما يسببه من حرج..

ويتضاعف الحرج إذا اكتشف الطفل اختلافا فى السياسة ودرجة الحزم بين الوالدين - إذ يجب أن تكون سياستهما أمام الطفل واحدة - ولكنه إذا اكتشف التناقض فإنه سرعان ما يستفيد من ذلك الوضع إلى أقصى حد، صحيح أن الأطفال يولدون بصفات شخصية موروثة فى الكروموسومات ولكن البيئة والتربية يمكنهما أن يغيرا الكثير، كما أنه من أخطر الأمور تكرار إهانة الطفل بالضرب أو الكلام أمام الآخرين.

الخلط بين تربية الذكور والإناث

وأود أن أشير هنا إلى المشاكل التى تأتى نتيجة للخلط فى تربية الذكور والإناث، فبعض الأمهات اللائى كن يرغبن فى جنس معين قد يربين الولد تربية الأنثى فى الملبس والمعاملة والكلام، وقد يجرى تشجيع الأنثى على أن تسلك سلوك الذكور، وقد يؤدى كل هذا إلى أن يدخل الطفل مرحلة الشباب سواء كان ذكرا أم أنثى وهو يحوى فى داخله الميل إلى صفات الجنس الآخر مع كل ما يحمله هذا من خطورة فى التفكير والسلوك الجنسى، ولذلك يجب تربية الذكر بما يؤدى إلى أن يكون أكثر ذكورة، والأنثى أكثر أنوثة وذلك بكل الوسائل المتاحة مثل المعاملة والملبس واللعب فضلا عن اختيار الأصدقاء.

وكل من الجنسين يجب فصلهما فى المبيت عن غرفة الوالدين مبكرا، فالأطفال الذين أتيح لهم مشاهدة الوالدين فى أحوالهما المختلفة لا ينسون ذلك أبدا، كما أن فصل الطفل فى المبيت هو أول درس فى تعليمه الاعتماد على النفس.

غيرة الأب من الطفل

وَغَيْرَةُ بعض الآباء من انشغال الأم بطفلها الأول سببها أساسا هو عدم خبرة الأم الصغيرة مما قد يؤدى إلى أن تستغرق خدمة هذا الطفل الليل والنهار، فإذا أنجبت طفلا ثانيا دون إمهال فإن الأمور قد تتعقد كثيرا، وأذكر زوجات قضين سنوات زواجهن الأولى فى حمل وإنجاب متسارعين مما أدى بهن إلى ما يسمى «بالدهولة والبهدلة» فضلا عن ضياع اتزان الزوج الصغير.

تأثير علاقة الأم بالطفل على سلوكها

وعلاقة الأم بالطفل هى أحد الدوافع الداخلية التى تؤثر تأثيرا قويا على سلوك المرأة، وقد تجعل هذا السلوك غامضا لمن هم خارج دائرتها، مثلها فى ذلك كمثل الحب والجنس والغيرة والكراهية، ولازلت أذكر زوجة تزوجت للمرة الثانية بعد طلاقها من الأول الذى كانت قد أنجبت منه عدة أطفال ورغم أن الزوج الثانى كان غارقا فى حبها حتى أذنيه ويتمنى أن ينجب منها، فقد أصرت على عدم

الإنجاب منه حتى لا تقطع خيطا رفيعا وأخيرا يربطها بأطفالها، حيث كان زواجها الثانى لأسباب اقتصادية بحتة.

وفى ذات الوقت فإنى أشعر بالحزن والتعاطف مع أمهات مصريات تزوجن من رجال غير مصريين زيجات دوافعها اقتصادية فى الغالب، ولكن اختلاف الطباع أو مفاجاءات المعيشة فى المهجر مع عدم المقدرة على التأقلم أجبرتهن على التخلى عن أطفالهن وبدء حياة زوجية جديدة فى مصر، ورغم أن هذه الحياة الجديدة كانت ناجحة وسعيدة فى أغلب الأحوال إلا أنه لم تكن تمحو نظرة الأسى فى أعين هؤلاء الأمهات عند تذكيرهن بهذا الأمر عند سؤالهن عن تاريخهن الزواجى والإنجابى.

قسوة زوجة الأب على الطفل

وأكثر القصص إيلاما هى قصص القسوة على الطفل، وعندما تأتى هذه القسوة من جانب الأنثى، فإنها تكون بدون منطق، وبالتالى فهى بدون حدود، وبالرغم من وجود الأمثلة الطيبة من زوجات الآباء فإن منهن من يمكنها أن تناصب طفلا صغيرا العداء الذى وصل فى بعض الأحيان إلى مرحلة التوحش، وذلك لمجرد أنه ابن أو بنت زوجة زوجها السابقة، ولا يمكننى أن أحصى القصص الشاذة التى عرفتها عما يقاسيه الأطفال من زوجة أب محملة بأفكار تتلخص فى ضرورة القضاء على ذكرى الزوجة الأولى وأولادها أيضا إن أمكن، ومن نماذج الإجراءات التى تتخذها مثل زوجة الأب هذه ما يلى:

– منع بنت أو أكثر من بنات زوجها من استعمال الدراسة، بحجة أنها لا يمكنها أن تقوم وحدها بخدمة كل هذه الأسرة.

– خفض المشتريات اللازمة للأطفال بما يحد من مظهرهم الخارجي بحيث ينطبق على كل طفل وصف «ابن القديمة» فعلا، فإذا اقترح زوجها شراء حذاء جديد لطفل كان ردها أنه يمكن تركيب نصف نعل للحذاء القديم بدلا من ذلك، وإذا رأى شراء بنطلون اقترحت تقصير بنطلون أخيه القديم.. وهكذا.

– التحكم فى كل تصرفات أبناء الزوجة الأولى وإرهابهم معنويا وجسديا إن أمكن.

– إفساد العلاقة بين الأطفال وأبيهم، والوقيعة بينهم بكل الطرق المعروفة.

– السعى باستمرار لكى يسجل زوجها باسمها وأسماء أطفالها كل ما يمكنها أن تقتنعه به من أملاك بحيث تعرى الآخرين تماما أو تترك لهم الفتات على الأكثر.

من قصص القسوة

وأذكر أن طفلا فى الثامنة كان يقف باستمرار أمام مركز تنظيم الأسرة الذى كنت أعمل فيه، فاستفسرت عنه ولماذا لا يذهب إلى المدرسة، فذكرتنى المرضة بوالدته التى كانت فى حوالى الأربعين

ولها من الأطفال أربعة وكانت تستعمل وسيلة اللولب لمنع الحمل لسنوات، ولكنها عندما وجدت أن اثنتين من جاراتها الصغيرات قد حملتا، حضرت إلى مركز تنظيم الأسرة وأصرت على نزع اللولب لأسباب طبية غير حقيقية، ولم تفلح معها كل الطرق لاقناعها بعدم نزع اللولب، وقد كان، فحملت وتوفيت أثناء الولادة بسبب النزيف.

فدعوت الطفل لأعرف أخباره، فذكر أن والده تزوج من أخرى بعد وفاة والدته بشهرين، وفي خلال سنوات قليلة كان إخوته الثلاثة قد تركوا المنزل لسبب أو لآخر، وذكر أيضا أن زوجة أبيه توقظه من النوم متأخرا حتى لا تضطر لإفطاره في حضور أبيه، وحوالى الظهر يكون الطفل المسكين قد جاع كثيرا، فيسترق الخطى إلى المطبخ ليلتقط شيئا يأكله فتحس به فتجرى إليه لتضربه، وحالما يعود أبوه إلى المنزل تبادره بأكاذيب وأن أهل والدة الطفل يحرضونه على مضايقتها فيضربه أبوه أيضا، والواقع أن الطفل كان نحيفا جدا ويقاسى من أعراض سوء التغذية الشديدة.

جريمة الأمهات

ولم يكن ممكنا عند سماع مثل هذه القصة، – وقصص أخرى تزخر بها مؤسسات الأحداث حيث يجتمع مثل هؤلاء الضحايا، – أن نمنع أنفسنا من التفكير في جريمة الأمهات اللاتى يعرضن حياتهن عمدا للخطر بالحمل والولادة في سن متأخرة بعد أن استكملن أسرهن،

وذلك أن الأم التى تترك طفلا صغيرا تعرضه لكل ألوان القسوة والهوان، بينما إذا توقفت عن الإنجاب فى سن مبكرة فإنها إذا قضى الله أن تتركهم، فالأكثر أنها ستتركهم فى سن يصعب على الآخرين أن يمارسوا صور القسوة معهم أو أن يحرموهم من حقوقهم.

أين دور الأب؟

وقد يتساءل البعض، وأين دور الأب فى منع القسوة على أطفال زوجته الأولى؟

وهنا أود أن أوضح أن هذا الأب يتزوج عادة فى خريف العمر وهى مرحلة تنحدر فيها قدراته الجنسية أمام زوجة فتية، والضعف الذى يشعر به نتيجة لذلك الفارق والذى يمنعه من إسعادها كما يتوقع يولد لديه شعورا متزايدا بالهوان سرعان ما تكتشفه الزوجة وتكتشف بالتالى مدى المكاسب التى يمكن أن تجنيها إذا ضربت على هذا الوتر بإتقان، فالزوج المثخن إن لم يستطع أن يبهر زوجته فى ميدان القتال فإن لديه أشياء أخرى يمكن تقديمها قربانا للحصول على الرضا وكثيرا ما يدخل الأطفال ضمن هذا القربان.

وهنا قد يثور تساؤل آخر: ولماذا لا يتزوج مثل هذا الرجل من امرأة تناسبه سنا بحيث يمكن أن تواكبه جنسيا؟

والرد على ذلك أنه فى الأربعينات وبعدها يكون الرجل قد استقر فى الحياة العملية، وحقق منصبا أعلى ودخلا كبيرا، وبالتالى فإنه

يصبح محل إغراء لفتيات الأسر الفقيرة نسبيا، فضلا عن أنه يكون لا يزال محتفظا ببعض الشباب ولا يمكنه مقاومة الزواج من فتاة صغيرة وجميلة، وهناك بعض الفتيات ممن يعجبن بالرجال في هذه السن أو أن ظروفهن تجعلهن يرين في الزواج من مثل هذا الرجل إنقاذا من ظروف اجتماعية سيئة، ومهما كانت الدوافع فغالبا ما تلبس الفتاة بعد الزواج لباس زوجة الأب، وتسير في طريقها إلى المدى الذى تسمح به الظروف، فقد أتيح لى أن أرى فتيات مع أمهاتهن كالفراشات الجميلات، ثم سمعت عن بعضهن بعد أن أصبحت زوجات أب، وكنت أدهش كثيرا للتغير الذى يمكن أن يعترى إنسانا لأنه وجد نفسه فى موقف معين.

متى تكون زوجة الأب مظلومة

وزوجة الأب يمكن أن تكون فى موقف ضعيف بل ومظلومة فى وجود أبناء كبار يجب هى وزوجها أن يعملوا لهم حسابا كبيرا فضلا عن فقدان الحرية فى وجود هؤلاء الأبناء الذين كثيرا ما يبدءون هم بالمشاكل، ولكنى وجدت دائما أن زوجة الأب راجحة العقل يمكنها أن تحتويهم إذا أشعرتهم بالحب، وجعلتهم يقدرون جميلها فى تخفيف هَمِّ الأب المسن عنهم.

قسوة زوج الأم

ومن الناحية الأخرى، فأنا أذكر سيدة مطلقة لها طفلة سنها أربع سنوات تزوجت للمرة الثانية، وكانت تحضر إلىّ أثناء حملها من الزوج الجديد فكنت ألحظ عليها تقطيباً مستمرا وشرودا، ومع ذلك لم أستطع مقاومة أن أسألها سؤالا أوجهه إلى من تزوجت أكثر من مرة وهو: من أحسن.. الزوج القديم أو الجديد؟ وكأننى فتحت لها نافذة لتتنفس عن شيء فى صدرها، يتلخص فى مظاهر شعور الغيرة التى يحملها زوجها من طفلتها التى اكتشفت حاجز الكراهية الذى وضعه زوج أمها بينها وبينه، حتى إنه كان يحضر إلى البيت فى أوقات مفاجئة أثناء النهار ليستمتع بإبعاد الأم عن طفلتها التى تعودت بعد النظر فى عينيه أن تبتعد إلى أقصى مكان فى الشقة حين تواجده بها.

وإذا تزوجت المرأة الأرملة أو المطلقة ومعها أولاد كبار فإن الوضع الأنثوى لها فى البيت سينعكس على أولادها وخاصة الذكور منهم مما قد يؤدى إلى ردود عنيفة لديهم إلا إذا استطاع الزوج الجديد أن يحتويهم بما يرضى شبابهم وطموحهم.

وليس معنى الأمثلة السابقة أن ننصح بألا يتزوج الرجال أو النساء إذا ترملوا أو لم يوفقوا فى زيجاتهم الأولى، فقد بينا فى مواضع

أخرى من هذا الكتاب أن الرجل إذا لم يتزوج فى هذه الظروف فقد تقتله الوحدة فعلا، كذلك بالنسبة للزوجة.

المعاناة بعد ذهاب الرفيق الأول

فبالرغم من ازدحام المجتمع بالنماذج التى امتنعت فيها المرأة عن الزواج ثانية وهى فى ريعان الشباب لكى تتفرغ لتربية طفل أو أكثر من زوجها الأول، إلا أننى وجدت أن مثل هؤلاء الزوجات يعانين بشدة فى هذا الطريق، وتزيد المعاناة وتتشكل أنواعها كلما أوغلت فيه. وتبدأ المعاناة بأن تلحظ فى عيون القريبين تشجيعا على التفرغ لرعاية الطفل أو الأطفال أو يكون ذلك هو رد فعلها المبدئى لصدمة فقد الحبيب الأول ورفيق الشباب، وبعد فترة تجد أنه مطلوب منها أن تكبت غريزة جنسية هوجاء حتى يظل المجتمع سعيدا بها، ولكنها تكتشف أيضا أن نساء هذا المجتمع نفسه يخشين منها على أزواجهن إلى الأعماق، لأن الصيادين لا يستريحون مع وجود غزال طليق بالقرب منهم، فتحاصر السكينة فى عشها وتتكون لديها حساسية مفرطة تتزايد مع الزمن، ولا تلبث أن تختلط لدى بعضهن الأمور وتزيد العصبية.

ويستقبل الأطباء هؤلاء بآلام فى أماكن مختلفة من الجسم، وكلها مظاهر لمتاعب نفسية، وهى خلال كل هذه السنين وبتشجيع غير صريح من بعض القريبين ترفض من يتقدم إليها حتى يكبر الأطفال،

فإذا كبروا فالانفصال عنهم صعب وقبولهم زواج أمهم أصعب، وأحيانا يتاح فرصة الزواج من فتى صغير فيضطرب كل شيء.

فرصة الزواج الثانى

وعندما يكون للمرأة أو الرجل أطفال كثيرون قد لا يجدون من يرحب بالزواج منهم وخاصة بالنسبة للمرأة، بينما إذا كان لديها طفلان فقط وقضى الزمان أن تكمل مشوار الحياة وحدها فإنها سيمكنها تدبير أمورها ويمكن للدخل المحدود أن يكفى، ويمكن للآخرين أن يرعوا طفلا أو طفلين إذا خرجت للعمل ويمكن أن تجد زوجا.

فإذا استمرت بدون زواج حتى يجد كل من الأبناء طريقه فى الحياة فأمامها الوحدة، ولكنها تحتاط لها بتقديم كشف الحساب - وهى حياتها كلها - إلى الأبناء، فهى التى صنعتهم فى سنين الكفاح وليالى المعاناة، فمن حقها أن تتدخل فى شئونهم وأن تدس أنفها فى مستقبلهم وقد تفسده، وكثيرا ما تكون النهاية أبعد كثيرا عما توقعته فى البداية.

إذن فما الحل؟

لنتبع الفطرة

الواقع أن الحل يكمن فى أن ندع الطبيعة تعمل، تلك الطبيعة التى خلقنا بها والفطرة التى فطر الله الناس عليها، فلا تنتهى

الحياة بذهاب الرفيق الأول، ويمكن دائما أن يبدأ الإنسان حياة جديدة مع رفيق جديد إذا ما رغب بحق، فهناك من يسعده فعلا الإبقاء على ذكرى الرفيق الأول حية، ولكن يجب أن يكون ذلك هو الاستثناء، وألا يكون متأثرا بضغط خارجي ظاهر أو غير ظاهر وأن يكون من حقه الرجوع عن قراره وقتما يرى.

وطبعا هذا لا يأتي بقانون، ولكنه ما أرى أن يتبناه المجتمع لسلامته بحق، رغم أن الزوجات مع أزواجهن يرفضن هذا الفكر بشدة، كما لا يتصور الرجل إطلاقا أن تكون امرأته لغيره من بعده، وهو ما أوافقهم عليه تماما إلى أن تأتي الظروف.

كيف تضمن عدم تعرض الأطفال للقسوة النفسية والبدنية

وهنا نأتي إلى مشكلة الأطفال الذين سيلزم التفكير في كيفية ضمان عدم تعرضهم للقسوة النفسية والبدنية، ولا جدال في أنه في الوقت الذي يتبنى فيه المجتمع الأفكار الفطرية على نطاق واسع ستقل معاناة الأطفال بحكم اعتياد الظروف، ومع ذلك فإن واجب المجتمع ألا يسمح بنسبة مهما تضاءلت من القسوة على الأطفال، وذلك بانتشار جمعيات منع القسوة على الأطفال، واستصدار القوانين الشاملة التي تحول دون تعرضهم للقسوة حتى من آبائهم أو أمهاتهم أنفسهم، وسيستلزم هذا أن يكون من حق الجيران والأقارب التدخل بمعاونة السلطات التنفيذية والقضائية السريعة لإنقاذ الأطفال من القسوة التي وصلت في بعض الأحيان إلى حد تعذيبهم حتى الموت.

نظام المحلفين

وقد لاحظت أنه بالنسبة للطفل الذى تتزوج أمه للمرة الثانية فى مرحلة مناسبة تكون سلامته النفسية أفضل لأن بيته يبدو طبيعيا أمام أقرانه بالمدرسة، و ذلك عكس ما قد يتبادر إلى الذهن لأول وهلة.

وإذا كان هناك من يعترض على نظام المحلفين فى القضاء العادى فإن هذا النظام أفضل ما يكون فى القضاء الخاص بالأطفال، فليست الأم دائما أفضل من يرعى الطفل، وكذلك بالنسبة للأب، ونظام المحلفين فى هذا النوع من القضاء هو تربية للمجتمع على الأسس التى تمنع القسوة على الأطفال.

obeikandl.com